

# الوزير ابن عَنِين الدمشقي

عاشق الفحاء وطريدها

د. أحمد المشرف

جامعة آل البيت - الاردن

## توطئة..

لقد كان اختيار ابن عنين شاعراً ساخراً ساخطاً على عصره و أعيانه درساً رائداً ذا قيمة علمية، حيث أن ابن عنين قد لقي إهمالاً شديداً من لدن الباحثين قدامى ومحدثين، فلما جست في المراجع والمصادر القديمة والمحدثة، لم أقع على شيء مغنى عن حياة الشاعر وشعره.

وابن عنين كأى شاعر مرآة عصره، فلا بد أن يضيء لنا من خلال شعره جوانب من الحيات السياسية والاقتصادية والاجتماعية للقرنين السادس والسابع الهجريين، هذين القرنين اللذين تحامل عليها الباحثون في الأدب في وصمهما بعصور التخلف والانحطاط، فتجنبوا درسهما درساً وافياً.

فبدأت البحث بدراسة نظرية عن حياة الشاعر ونشأته وملامح عصره و شاعريته وثقافته وشيوخه وأغراضه الشعرية، حيث قصرت بحثي على ثلاثة أغراض منها، وسعت جلّ نظمه، ثم كانت الدراسة الفنية للغة والموسيقى الشعرية، وقد أوجزت في التمثل و الاستشهاد إلى حد الكفاية توجساً من الإطالة والإملال.

## ABSTRACT

Choosing Ibn- A' neen as a sarcastic and resentful poet against his era and its representatives was a precious pioneer study because Ibn-A'neen was totally ignored by researchers , old and recent. the researcher couldn't find a single valuable article dealing with this poet, his life or his poetry in both old and recent references and resources.

Ibn-A'neen ,as other poets is his era, was a reflecting mirror of that era ;his poetry must have illuminated all aspects of life, i.e. political, economic and social aspects of both the 6<sup>th</sup> and 7<sup>th</sup> hijri centuries that were painted with reactionary and decline by most researchers in the field of literature, thus avoiding any comprehensive study.

Therefore, the research started with a theoretical study of the poet's biography, the different aspects of his era, his political intuition, his culture , his masters in poetry and his poetic aims included in most of his works.

The researcher came up with the artistic study of the poet's language and his poetic rhythm. The researcher meant to be brief in quoting enough, yet satisfactorily examples to avoid being lengthy and boring.

## ابن عَنِين..

هو محمد نصر بن مكارم بن الحسين بن علي بن محمد بن غالب ابن عنين الأنصاري<sup>(١)</sup>، ويكنى أبا المحاسن، فضلاً عن العديد من الألقاب الرفيعة، أطلقها عليه معاصروه ومن أرخوا له مثل: شرف الدين أو شهاب الدين، والأديب الرئيس، والصدر، والقاضي وغيرها كثير، تدل على مكانة علمية، وأدبية، وثقافية، وسياسية، واجتماعية سامية حضى بها في حياته.<sup>(٢)</sup>

ولد ابن عنين بمدينة دمشق<sup>(٣)</sup> عام ٥٤٩ هـ، ونشأ في أسرة فقيرة الحال، لم يعرف عنها الكثير، إذ أن مؤرخي الأدب وأصحاب التراجم نادراً ما كانوا يعرضون أخباراً مفيدة عن الحيوات الأول لمن ترجموا لهم، ويعد ابن خلكان ت(٦٨١) أول من ترجم لهذا الشاعر في كتابة وفيات الأعيان.

ينحدر ابن عنين من قبيلة عربية أنصارية، خرجت من المدينة المنورة إلى الكوفة، ثم انتقلت هذه الأسرة في آخر مراحل تنقلها إلى دمشق، قادمة من حوران من أعمال بلاد الشام، وحطت رحالها في الأحياء المجاورة للمسجد الأموي بدمشق.<sup>(٤)</sup>

كانت نشأة ابن عنين بسيطة في أسرة معدمة كأبناء الطبقات الفقيرة في المجتمع الدمشقي المحافظ، فقضى طفولته وصباه وشطراً من شبابه في دمشق، ومنذ نعومة أظفاره اختلف إلى حلقات العلم في المساجد والمدارس، حيث كان العلم متاح للجميع؛ لأبناء الفقراء مثلما هو لأبناء الأغنياء، وكان يتصدى للتدريس في المساجد، ويتصدر حلقات الدراسة جماعة من الأساتذة الأجلاء أمثال: محمد الحافظ بن عساكر ت ٥٧١ وهو أحد أئمة الحديث المشهورين والعلماء المذكورين<sup>(٥)</sup> وأبو المعالي مسعود بن محمد بن مسعود النيسابوري (ت ٥٨٧)، وأبو الثناء محمود بن رسلان الشيرزي (ت ٥٦٥) الذي كان متصدراً بجامع دمشق لإقراء النحو، ويظهر أن الشيخ الشيرزي قد توسم في تلميذه ابن عنين مخايل النبوغ والشاعرية فكان ينشده شيئاً من شعره.<sup>(٦)</sup>

١ - معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ط: دار المأمون، ١٩٣٨ م، ج ١٩ ص ٨١.

٢ - وفيات الأعيان لبني خلكان، تحقيق ٢. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ج ٧، ص ٣٣٣.

٣ - معجم الأدباء ياقوت الحموي، ط: دار المأمون ١٩٩٨ ص ١٩ ص ٨١.

٤ - معجم الأدباء - مصدر سابق ص ٨١.

٥ - معجم الأدباء، مصدر سابق ص ١٩ ص ٨٢.

٦ - معجم الأدباء، مصدر سابق، ج ٢، ص: ٢٥.

وبعد أن رشد ابن عنين اتخذ من ظهور العيسى مكانا وخذت به زمنا في بلاد المشرق وفي ذلك يقول: (٧)

أجْدَكَ مَا تَزَالُ بِكَ الرَوَاحِلُ      تَنْقَلُ فِي الْهَوَاجِرِ وَالْهَوَاجِلُ  
إِذَا أَمْسَيْتَ فِي بَلَدٍ غَرِيبٍ      تَرُومُ إِقَامَةً أَصْبَحْتَ رَاحِلُ

وأثناء تطوافه في بلاد المشرق، أقام زمنا في بغداد، وتلمذ على يد الشيخ فخر الدين الرازي المعروف بأبن خطيب الرّي (ت ٦٠٦) وأخذ عنه، وكان هذا الشيخ علما من أعلام الكلام وعلم الأوائل. (٨)

أما فيما يتعلق بوالده، فلم تذكر المصادر شيئا مغنيًا، إذ لم يتقدم صاحبنا في أسرته من نبغ في علم أو أدب أو سياسة. (٩)

وإذا ما انهد الباحث إلى ديوانه مستعينا بشعره فلن يسعفنا كثيرا، إذ وجدت أبيات قليلة يذكر الشاعر والده بها في موقف هجاء، فوالده كما يبدو لنا رجلا فقيرا تتجاوز العين شكلا وخلقا فيما إذا صحت نسبة هذه الأبيات إليه، فقد ألمح بها ابن عنين عن شخصية والده بقوله: (١٠)

وَجَنَّبَنِي أَنْ أَفْعَلَ الْخَيْرَ وَالْإِدَّ      ضَيْلٌ إِذَا مَا عَدَّ أَهْلُ الْمُنَاسِبِ  
بَعِيدٌ عَنِ الْحَسَنِ قَرِيبٌ مِنَ الْخَنَا      وَضِيعٌ مَسَاعِي الْخَيْرِ جُمُ الْمَعَايِبِ  
إِذَا رَمَتْ أَنْ أَسْمُو صَعُودًا إِلَى الْعُلَى      غَدَا عَرْقُهُ نَحْوَ الدَّنِيَّةِ جَانِبِي

وأنه ليدخلني ريب في نسبة هذه الأبيات إلى ابن عنين، وربما كانت من وضع حساده، لأنه لا يعقل أن يقوم إنسان طموح يسعى إلى المجد كابن عنين أن يضع عقبة كأداء في طريقة وينشرها بين الناس، فالإنسان الكيس العاقل في مثل هذه الحال يخفي أي عار أو نقیصة لحقت به أو بنسبة لئلا تكون حجة عليه، وهو في مجال تحد لكل الناس كبارا وصغارا.

٧ - ديوان ابن عنين، تحقيق مردم بك، دار صادر، ط٢، ص ٢٣٩.

٨ - وفيات الأعين، مصدر، سابق، ج ٢، ص ٢٤٩.

٩ - ديوان ابن عنين، مرجع سابق، ص ٢٤٩.

١٠ - المصدر نفسه، ص ٢٣٩.

أما فيما يتعلق بحياته العائلية، فلم تذكر المصادر شيئاً عن ذلك ولا تجد في شعره أيضاً ما يضيء لنا هذا الجانب من حياته، فالإشارات الواردة في شعره لا تغني شيئاً، ولا تؤكد بأن ابن عنين قد ارتبط بزوج وعاش حياة أسرية.

لقد ذكر لنا مؤرخو الأدب شيئاً من صفاته الشخصية والتي تتمحور حول خفة الروح، والذكاء، فقد كان رجلاً ظريفاً حسن الأخلاق، جميل المعاشرة، ذا شخصية وديعة، ميالاً إلى المرح والفكاهة، لبيب الكلام كثيره.<sup>(١١)</sup>

وعلى الرغم مما رمي به ابن عنين من الفسق والتهتك، وقله الدين، غير أن ياقوت الحموي يصفه بأنه من أفاضل عصره<sup>(١٢)</sup> وكثيراً ما كان يقوم بعمل الخير، وكان يتمتع بجاه عريض، وقد عالى عند الملوك، وقد تولى الوزارة للملك المعظم عيسى الأيوبي، حيث سمت به نفس عالية أوصلته إلى ما وصل إليه من رفعة الشأن، وتوليه أرفع المناصب الوزارية في دولة بني أيوب، بداية من عهد الملك المعظم، فيقول في ذلك:<sup>(١٣)</sup>

ولا بد أن أسعى لأفضل رتبة وأحمي عن عيني لذى منامي

واقترح الأمر الجسيم بحيث أن أرى الموت خلفي تارة وأمامي

فإنما مقاماً يضرب المجد حوله سرادقاً أو باكياً لحمامي

وقد وزر ابن عنين للملك الناصر داؤود بعد وفاة الملك المعظم، واستمر في الوزارة حتى سلّم الناصر دمشق إلى عمّه الكامل سنة ٦٢٦، فلزم داره حتى مات فيها.<sup>(١٤)</sup> وكانت وفاته بعد مرض طال به زمناً عشية نهار الاثنين العشرين من شهر ربيع الأول سنة ثلاثين وستمائة بدمشق، ودفن في مقبرة بلال بن رباح في ظاهر دمشق.<sup>(١٥)</sup>

١١ - وفيات الأعيان، مرجع سابق، ج ٥، ص ١٧.

١٢ - معجم الأدياء مصدر سابق، ج ١٥، ص ٨٢.

١٣ - ديوان ابن عنين، مرجع سابق، ص ٢٣٩.

١٤ - وفيات الأعيان، مصدر سابق، ج ٥، ص ١٨.

١٥ - المصدر نفسه، ج نفسه، ص نفسه.

## الملاحم العامة للعصر..

إن أردنا أن نتحرى التحليل الأقرب إلى حقيقة مرامي الشاعر، فلا بد بأن نلتم بثقافة عصره، فكل عصر من العصور ثقافة تميزه عن غيره تتمثل في الحيوات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فهذه الأجواء هي مصدر ثقافة الشاعر ومنبع الهامة وصورة ومنطلق خياله. فلقد عاش ابن عنين بين مطلع النصف الثاني من القرن السادس الهجري ونهاية الثلث الأول من القرن السابع تقريبا، حيث ولد عام ٥٤٩هـ، وتوفي عام ٦٣٠هـ. (١٦)

ففي هذا العصر سقطت دولة العبيدين في مصر، وقامت بدلا منها دولة الأيوبيين في مصر وبلاد الشام، وهو العصر الذي شهدت فيه بلاد الشام خطر هجمة حملة الصليب على سواحل بلاد الشام بعد انحسار ظل الدولتين العباسية والفاطمية، وما آلت إليه أمور البلاد من ترد واضح في الحالة الاقتصادية، فقد أسس السلاجقة دولتهم على أساس النظام الإقطاعي. (١٧) لم يكن الأمر بمصر بأفضل من ذلك، إذ أن الضعف قد بدأ يدب في أوصال الدولة الفاطمية منذ بداية القرن الخامس بعد وفاة الظاهر لدين الله عام ٤٢٧هـ، إذ استولى الصليبيون على كثير من مدن الساحل الفلسطيني حتى وصلوا عريش مصر (١٨). لذلك كانت بلاد الشام تحمل عبء الدفاع عن حدود الأمة وحيدة عندما نامت بغداد وقرى الأمة الأخرى.

لا شك أن الحياة الاجتماعية تبعا للحياة السياسية بصورة عامة فالمجتمع متوزع على طبقتين لا ثالث لهما، طبقة الخاصة وطبقة سواد الشعب، وهذه الطبقة الأخيرة تمضي أيامها وتبذل جهودها في خدمة الطبقة العليا التي تحرص هي بدورها على إبقاء هذه الأوضاع بسن القوانين التي ترهق عامة الناس بالضرائب فتزيد من فاقتهم.

فالناس والحالة هذه، لا بد من أن تنتشر بينهم العادات السيئة من فحش وشرب للخمر والمجاهرة بها تحديا للدين نتيجة الإحباط والفشل والفقر الذي يخيم على البلاد. (١٩)

وعلى العكس من المظاهر الاجتماعية وسوء الأحوال السياسية، فنجد أن الحياة العلمية والثقافية والأدبية كانت نشطة، وكأنها تحد لتردي الأوضاع ووسيلة للصمود والتصدي ومنبرا يدعو إلى النهوض وتجاوز المحن، فالحكام والوزراء يتبعون مكانة علمية وأدبية مرموقة، فهذا

١٦ - وفيات الأعيان، مصدر سابق، ج ٥، ص ١٨.

١٧ - الكامل في التاريخ لابن الأثير، ط دار صادر، بيروت سنة ١٩٦٦ ج ٥، ص ٦١.

١٨ - تاريخ مصر " المشهور ببداية الزهور في وقائع الدهور، لابن الياس، المطبعة الكبرى الأيوبية ببولاق، مصر.

١٩ - الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية، د. أحمد احمد بدوي مطبعة نهضة مصر ص ٣٩.

الملك المعظم عيسى بن أيوب الذي وزر له ابن عنين يضع كتابا يرد به على أبي بكر الخطيب البغدادي، والخليفة الناصر لدين الله العباسي يضع كتابا بعنوان روح العارفين. (٢٠)

ويكفينا للتدليل على رقي الحياة العقلية والثقافية والعلمية ذكر بعض من أسماء العلماء الذين ظهروا في هذا العصر وأغنوا المكتبة العربية بمؤلفاتهم الموسوعية الجليلة أمثال: ابن منظور وياقوت الحموي، وابن خلكان، وابن مالك، وابن البيطار، وأبن واصل وأبي شامة المقدسي، وكثيرون غيرهم.

### شاعرية ابن عنين..

لقد احتفى ابن خلكان بابن عنين وترجم له ترجمة طويلة قال فيها: "كان خاتمة الشعراء، لم يأت بعد مثله شاعرا ولا كان في أواخر عصره من يقاس به، ولم يكن شعره مع جودته مقصورا على أسلوب واحد تفنن فيه". (٢١)

فالشعر موهبة وصناعة معقدة، فالموهبة وحدها غير كافية ليكون الإنسان شاعرا، ولا الصناعة قادرة أن تخلق شعرا، فالموهبة والصناعة تتكاتفان لتفجير الشاعرية، ولا بد لهما من الصقل والتهديب، فالطريق الأنجع للوصول إلى هذا الهدف هو الإنكباب على الشعر الفصيح الجيد واستظهاره وروايته "ففي ذلك تقوية لطبعة وبه يعرف المقاصد ويسهل عليه اللفظ ويتسع المذهب". (٢٢)

وقد عرف ابن عنين بوفرة محفوظة من الأدب قال ابن خلكان: "وكان غزير المادة من الأدب مطالعا على معظم أشعار العرب" (٢٣)، ولذلك نجد في شعره اقتباسا وتضمينا من الشعر العربي على امتداد تاريخه من الجاهلي والإسلامي والعباسي، ونجد جملة من أسماء شعراء العربية منتشرة في ثنايا أشعاره، وفضلا عن محفوظة من الشعر العربي فقد ثقف علوم العربية من نحو وصرف، وتأثر بأسلوب القرآن الكريم حيث أكثر من الاقتباس والتضمين باللفظ والمعاني والصور.

20 - الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية، مصدر سابق، ص ٤٠.

21 - وفيات الأعيان، مصدر سابق، ج ٥، ص ١٤.

22 - كفاية الطلب في نقد كلام الشاعر والكاتب، ابن الأثير ت.د. نوري القيسي إخرون جامعة الموصل ص ٤٤.

23 - وفيات الأعيان، ج ٥ ص ١٤.

فإذا ما استقرأنا عبارة ابن خلكان السابقة التي يقول فيها: " لم يكن شعره مع جودته مقصورا على أسلوب واحد تفنن فيه" وقوله: " وأن ما وصلنا من شعره لا يبلغ عشر ما له من النظم ".<sup>(٢٤)</sup>

يمكننا القول أن ابن عنين يعد من كبار الشعراء اعتمادا على مقياس الجودة والكثرة وتنوع الأغراض الشعرية.

فديوانه الموجود بين أيدينا الآن وهو من جمع أحد معاصريه ويدعى محمد بن المسيب بن نبهان التغلبي الدمشقي، ويبدوا أنه هو الذي عناه ابن خلكان بقوله: " وقد جمع له بعض أهل دمشق ديوانا صغيرا ".<sup>(٢٥)</sup>

وقد حقق الديوان المرحوم خليل مردم علي، والنسخة المطبوعة من الديوان لا تحتوي على جميع شعره حيث استدرك عليه عبد العزيز الميمني أبياتا كثيرة بلغت أكثر من مائة وثمانين بيتا نشرها في مجلة المجمع العلمي العربي التي صدرت بدمشق سنة ١٩٥٩.

وإذا ما قمنا بإحصاء شعره في ديوانه الحالي وجدنا أنه ضم أربعين قصيدة؛ منها ست وعشرون قصيدة تراوحت اعداد ابياتها بين أحد عشر بيتا وثلاثين بيتا، وثلاثمائة وخمس مقطوعات نقل أبياتها - أي المقطوعة الواحدة - عن عشرة أبيات جلّها في الهجاء، وقد نظم ابن عنين الشعر في مختلف الأغراض كالمدح والهجاء والرثاء والغزل والحنين إلى الوطن وغيرها، ولنبدأ بالغرض الأول والأكبر وهو الهجاء.

### الهجاء..

أول شعر طالع به ابن عنين الناس هو الهجاء الذي صدر فيه عن روح متمردة ساخرة لا تعرف القيود، وقد ذهب محقق الديوان إلى القول بأن " إهمال نور الدين للشعراء كان من أشد العوامل في توجيه ابن عنين في شعره وصرفه إلى النقد والغمز واللمز، وتهيئته لأن يكون من كبار الهجائيين المعدودين على استعداد فطري شديد".<sup>(٢٦)</sup>

وفضلا عن هذا العامل المهم جاء إحساس ابن عنين بالإحباط والنقص عاملا مهما في توجيهه إلى هذا الطريق، ثم بعده عن معاني العزة والسمو من جهة نسبة وخمول أفراد أسرته،

24 - وفيات الأعيان ، ج ٥ ص ١٨.

25 - المصدر نفسه ج ٥ ص ١٧.

26 - مقدمة الديوان ص ٥.

جعله تأثراً على الناس مثل أصحاب المراتب العليا خاصة حتى أنه تعرض في بداية حياته لرجالات الدولة الصلاحية مما حدا بصلاح الدين إلى نفيه عن دمشق<sup>(٢٧)</sup> فيقول: (٢٨)

هَجَوْتُ الْأَكَابِرَ فِي جَأَقٍ      وَرَغْتُ الْوَضِيعَ بِهَجْوِ الرَفِيعِ  
وَأَخْرَجْتُ مِنْهَا وَلَكْنَتِي      رَجَعْتُ عَلَى رَغْمِ أَنْفِ الْجَمِيعِ

ويبدو من هذه الأبيات أن ابن عنين بدأ بالهجاء نظراً لضغفه وهوانه، فاتخذ الهجاء سيفاً يلوذ به من سلطة الأقوياء، ودفاعاً احترازياً لحياطة نفسه مسبقاً من تعرضهم له.

ولم يكن يفرق ابن عنين بين مهجويه، ولم يردعه رادع في التعرض لبعض الأسماء اللامعة في الدين والسياسة وأصحاب الفضل في عصره، فقد تعرض للقاضي الفاضل وهو من أبرز أعلام السياسة والدين، وزر للسلطان صلاح الدين، حيث حضى عنده بمكانة عالية جداً يحسده عليها كل الناس، فيقول صلاح الدين فيه: " لا تظنوا أنني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم القاضي الفاضل".<sup>(٢٩)</sup>

فيبدو أن الدافع وراء ذلك هو حسد ابن عنين للقاضي الفاضل على هذه المكانة، فيقول فيه: (٣٠)

أَظْهَرْتَ فَضْلَ تَقَى وَفَضْلَ تَعَفٍ      وَاللَّهِ يَعْلمُ أَنَّهُ بِهَتَانُ  
مَا طَالَ فِي اللَّيْلِ الْبَهِيمِ سَجُودَهُ      إِلَّا لِيَرْكَعَ حَوْلَهُ السُّودَانُ  
فَإِذَا سَمِعْتُ، سَمِعْتُ أَمْرًا مَنكَرًا      وَإِذَا رَأَيْتُ، رَأَيْتُ لَا إِتْسَانُ

وإذا ما دققنا النظر في هذا الهجاء نجد أن ابن عنين لم يُصِبْ من أعراض القاضي الفاضل، وإنما قصر هجاءه على شخصيته، فهو يطعن في تدينه وتقاه ليصرف النظر عنه بكشف

27 - وفيات الأعيان مصدر سابق، ج ٥ ص ١٤.

28 - ديوان ابن عنين، مرجع سابق ص ٩٤.

29 - النجوم الزاهرة في حلي القاهرة، عبد الله الحجازي، ت. حسين نصار، طدار الكتب المصرية سنة ١٩٧٠، ج ٦ ص ١٥٧.

30 - ديوان ابن عنين، ص ١٨٨.



عيوبه للحكام والناس، وكل هذا من باب الحسد والحقد على الذين وصلوا مراتب عالية، كانت بعيدة عنه في تلك الفترة فهو يقول: (٣١)

إذا رمتُ أنْ أَسْمُوا صعوداً إلى العُلَى      غدا عرقه نحو الدنيّة جاذي

كما تعرض لمعظم السادة والأعيان في عصره، ومنهم الملك العادل وهو شقيق صلاح الدين، يقول فيه: (٣٢)

إنَّ سُلْطَانَنَا الَّذِي نَرْتَجِيهِ      واسِعُ الْمَالِ ضَيِّقُ الْإِنْفَاقِ

هُوَ سَيْفٌ كَمَا يُقَالُ وَلَكِنْ      قَاطِعٌ لِلرُّسُومِ وَالْأَرْزَاقِ

وتعرض أيضاً للعزیز صاحب مصر بعد أن هاجر إلى اليمن بقوله: (٣٣)

مَا كُلُّ مَنْ يَتَسَمَّى بِالْعَزِيزِ لَهَا      أَهْلٌ وَلَا كُلُّ بَرَقٍ سَحْبُهُ عَدَقَهُ

بَيْنَ الْعَزِيزِينَ بَوْنٌ فِي فِعَالِهِمَا      هَذَا يُعْطَى وَهَذَا يَأْخُذُ الصَّدَقَةَ

وتعرض للملك الأشرف بن الملك العادل عندما فتح الملك الكامل محمد دمشق بعد الملك المعظم عيسى، وأعطاه الملك الأشرف موسى، ويبدو أن الملك الأشرف لم يحقق له ما أراد من العز والجاه والبسط من المال فقال فيه: (٣٤)

وَكُنَّا نَرْجِي بَعْدَ عَيْسَى مُحَمَّدًا      لِيُنْقِذَنَا مِنْ لَاعِجِ الضَّرِّ وَالْبَلَوَى

فَأَوْقَعْنَا فِي تِيهِ مُوسَى فَكَلْنَا      حَيَارَى وَلَا مَنْ لَدَيْهِ وَلَا سُلْوَى

فإذا كان هجاؤه لذوي السلطة نجده قد أبتعد عن الفحش والإسفاف وهتك الأعراض، في حين نجده يمعن في هجاء الطبقة الأقل ويشدد عليهم بالسخرية والتهكم فهو يعرض بصاحب حماه ويوري عنه بحماته، يقول: (٣٥)

31 - ديوان ابن عنين، ص ٢٣٩.

32 - المصدر نفسه، ص ٢٣٩.

33 - المصدر نفسه، ص ٢٢٣.

34 - المصدر نفسه ص ١٣٢.

35 - المصدر نفسه ص ١٣٣.

أشكو إلى الله حماتي      فما يعلم ما لاقيتُ منها سواه  
والله لا أفلح ما عمّرت      قل لي متى أفلح صاحبُ حماء

ويعرض برجل بات عنده ولم يقره: (٣٦)

ودار كريم بتُ فيها على الطوى      خميص الحشا أشكو المجاعة والقرّا  
فلما بدا نور الصباح لناظري      خرجتُ وقد أوسعت صاحبها شكرا

فإننا نلاحظ روح الفكاهة والهزل الذي يعترض بين التلميح والتصريح، وقد اتخذ الهجاء سبيلا للطعن بالأعراض والنسب متهكما ووالغا في أعراض المهجوين، ومن ذلك يقول في هجاء ابن عساكر: (٣٧)

يا ابن عساكر إن صح انتسابك ذا      فأنت من أمم صوّرت مسبوكا  
يا ابن الدجاجة كل الناس كان لها      ديكا، فأنت ابنُ مَنْ حَتَّى أناديكا

وقد تطرق في هجائه إلى جملة من المعاني؛ منها العيوب الجسدية كالعمى، والعيوب النفسية مثل الكبر والعجب، مضيفا إلى ذلك قلة العقل والبخل والرياء وخيانة المال العام، واتخذ هجاء المدن سبيلا على هجاء سكانها، فأنكر الزمن الذي عاش فيه بينهم وأنه لم يلق سوى الحسرة والبؤس والإحباط وضيق العيش، وأتهم الناس بالشقاق والنفاق، تقوّدهم العنصرية الدينية، وتتحكم بهم أراء الفرق ومعتقداتها.

### المديح..

قد يُملي العصر والأحداث التي يعيشها الشاعر ألوانا وأغراضا شعرية يضطرُّ الشاعر أن يأخذ بها، فقد كان عصر ابن عنين عصر حروب سجال، عصر الدفاع عن أمة الإسلام وعن مقدسات المسلمين من الهجمة الصليبية المقيتة، فميادين الجهاد وساحات المعارك والبلاء فيها وظهر شجاعة الشجعان تغري الشاعر وتلهمه القول، فقد استغرق المديح عند الشعراء المعاصرين لأبن عنين أكثر من نصف الديوان أمثال ابن سناء الملك وعلي بن المقرب.

36 - ديوان ابن عنين، ص ٢٢٤.

37 - المرجع نفسه، ص ٢٠١.

غير أنّ المديح في ديوان ابن عنين ربما لا يتجاوز أربعمئة بيت، وأن هذا الغرض الشعري قد بدأ يطرقه بعد أن تقدمت به السن وعاد من منفاه، وقد رأى جهاد حكام بلاد الشام دون غيرهم لصد الهجمات الصليبية عن ديار المسلمين، فأخذ يمدحهم محاولاً إنصافهم وإضفاء ما يسحقون من صفات الشجاعة والمروءة والعفة والعدل، فمن ذلك قوله في مدح الملك المعظم منوهاً بشجاعته: (٣٨)

مليك تحلّى المُلكُ منه بعزمه	بها طال من رمح السماك قصيدها
هُمامٌ تظلُّ الشمس من عزماته	محجبة، نفعُ المذاكي ستورها
مهيّبٌ فلو لاقى الكواكب عابسا	تساقطت الجوزاءُ وخرت عبورها
لقد فاز بالملك المعظم أمة	إلى عدله المشهور ردت أمورها

نلاحظ أن ابن عنين لم يخرُج عن الصفات التي أطلقها الشعراء القدامى على ممدوحهم مثل صفات الكرم والمهابة والشجاعة والإقدام، وقد مدح بها صلاح الدين بقوله: (٣٩)

العادل الملك الذي أسماؤه	في كل ناحية تشرف منبرا
وبكل أرض جنة من عدله	ضافي أسال نداه فيها كوثر
عدلٌ يبيت الذنب منه على الطوى	غرثان وهو يرى الغزال الأعفرا
سيفٌ صقالُ المجد أخلص منته	وأبان طيب الأصل منه الجوهر
ثبت الجنان تراغ من وثباته	يوم الوغى وثباته أسد الشرى

وفي نفس القصيدة يضيف على الممدوح صفة الحلم والعفو عند المقدرة وهي من الصفات الشريفة عند العرب والمسلمين، وشعرنا العربي القديم حافل بهذه المعاني إذ يقول: (٤٠)

حلمٌ تخفُّ له الجبال وراءه	عزمٌ ورأي يحقرا الاسكندرا
----------------------------	---------------------------

38 - ديوان ابن عنين، ص ١٨.

39 - المرجع نفسه ص ٦٠.

40 - المرجع نفسه، ص ٧.

يعفو عن الذنب العظيم تكرماً      ويصدُّ عن قول الخنا متكبراً  
كم حادثٍ خَفَّتْ حلومُ ذوي النهى      خوفاً وجأشُك فيه أربط من حراً

### الرثاء..

يبدو أن الحقد الدفين على الناس والمجتمع وعلية القوم خاصة في صدر ابن عنين منذ مطلع حياته. جَمَدَ المشاعر الإنسانية عنده تجاه الآخرين، وقد علمنا أنه بدأ شاعريته بالهجاء المقنع لذوي السلطان وأهل الطبقات الحاكمة، وهو بهذا التصدير قد خالف المألوف في لون الشعر الذي يتصدر حياة الشعراء الفقراء الذين ينتمون إلى الطبقات الاجتماعية المحبطة وهم يتناولون إلى الغنى والرفعة من خلال تكسبهم من صناعتهم هذه وتقربهم إلى الحكام و أهل اليسار.

لذلك نجد أن هذا الغرض الشعري وهو الرثاء قد تضاعف إلى درجة ملفتة للنظر، بحيث لم نعر في ديوان ابن عنين إلا على ثلاث مرات أولها مرثيته في الملك المعظم. وعلى الرغم من متانة العلاقة بينها نجد أن القصيدة لم تكن صادقة العاطفة وإنما كان متملقاً فيها عند ابنه الناصر، إذا يقول: (٤١)

يادهرُ ويحك ماعداً مما بدا      أرسلت سَهْمَ الحادثات فأقصدا  
اغمدت سيفاً مرهفاً شفراته      قد كان في ذات الإله مُجرّداً  
فافعل بجهدك ما تشاءُ فإني      بعد المعظم لا أبالي بالردى  
لهفي على بدرٍ تغيبَ في ثرى      رمسٍ وبحرٍ في ضريحٍ أُلحدا  
لو كان خُلِقَ بالكمّارم والتقى      يبقى لكان مدى الزمان مُخلّداً

فالشاعر قد بدأ قصيدته معاتباً دهره الذي يردُّ إليه كلُّ الأرزاء والمصائب التي أصابته وتصيبه، ويطلب منه أن يقتصد في ابتلائه ويتلطف. فالدهر هو الذي أوقف حد هذا السيف الذي جُرّد للدفاع عن ذات الإله بحماية دينه، ويصف لنا بعد ذلك الحالة النفسية بعد رحيله، وما يكتنفه من حزن عميق لم ير فائدة من حياته

٤١ - ديوان ابن عنين، ص ٥٩.

بعد ذلك، ثم يضيف على المراثي الصفات التي نعت بها في حياته مادحاً، مثل؛ الرجولة والشرف والدفاع عن الدين والحق.

فالقصيدة قيلت في حضرة ابن الخليفة الناصر، فتجد الشاعر لا يكاد يتقلت من الحزن ليصل إلى هدفه وهو مدح الخليفة الناصر، فيكون كل ما سبق ذلك تمهيد للوصول إلى هذا الهدف، فيقول: (٤٢)

قل للأعادي إن فقدنا سيّداً	يحمي الذماء فقد رزقنا سيّدا
الناصر الملك الذي اصحى بـرو	ح القدس في كل الامور مؤيدا
أعلى الملوك محلاً واسدّهم	رأياً وأشجعهم وأطولهم يدا
ماضي العزيمة لا يرى في رأيه	يوم الكريهة حائراً مترددا
يقظ يكاد يريه ثاقب فكره	في يومه ما سوف يأتيه غدا

أما القصيدة الثانية وقد قالها في رثاء الأمير بدر الدين الجعبري الوالي بقلعة دمشق، وقد بدأها بأبيات من الحكمة والتأمل بفلسفة الموت، ولا أعدو مجاناً للحقيقة إذا قلت أن روح الشمامة من الأقوياء عند الموت تفوح من ثنايا هذه الأبيات وكأنه ينتقم لنفسه منهم، فإن كان هو غير قادر عليهم فإن الموت قادر، إذا يقول: (٤٣)

لا يخدعنك صحة ويسار	ما لا يدوم عليك فهو معار
يغشى الفتى حب الحياة وزينة الـ	دنيا وينسى ما إليه يُصار
لا تغترّ بالدهر أن وافاك في	حال يسرك أنه غرّار

وينتقل بعد ذلك طالباً للقبر السقبا كعادة القدامى وكان ظهور الربيع على دمنة القبر قد يخفف من عذاب الميت أو يؤنس كما يؤنس منظر الربيع الأحياء وربما هو إسكان ما في نفسية الشعراء الأحياء لحب الربيع والخضرة وكراهية المناظر المجذبة: (٤٤)

42 - ديوان ابن عنين، ص ٦٢.

43 - المرجع نفسه، ص ٦٦.

44 - المرجع نفسه، ص ٦٦.

الله جارك يا ابن يوسف ثاوياً      وسقى ضريحك وابل مدرار  
حتى ترى جنبات قبرك روضة      مخضرة ويحفّاه النوار

ثم ينتقل إلى ماكان من صفات سامية محمودة يتمناها الأحياء وأنْ يُمدحوا بها في حياتهم: (٤٥)

قد كنت ذكراً للملوك وعمدة      فبرأيك الإيراد والإصدار  
ولكم برأيك من ورائل قد سرى      نحو الأعادي جحفل جرار  
يابدر لو أبصرت بعدك حالنا      لشجاك ماجاءت به الأقدار

وعلى الرغم من ميل ابن عنين للمبكر للهجاء، وتميزه بهذا اللون الشعري حتى أنه عُدَّ من أشدَّ الهجائين إلا أنه تناول معظم الأغراض الشعرية الأخرى وأجاد فيها، ويؤكد ذلك ابن خلكان بقوله (٤٦): لم يكن شعره مع جودته مقصوراً على أسلوب واحد تقفن فيه " فبالإضافة إلى الأغراض المشهورة مثل المدح والثناء، نظم قصائد عديدة بالوصف فمزج الخمر بالطبيعة، فقد كان أحبُّ شيء إليه أن يعيش لحظات السعادة والمرح بين أحضان الطبيعة الشامية التي أسرتْ لُبّه، وبقيت صورها في غربته وترأَّ يشوقه للعودة إلى وطنه: (٤٧)

أشافتك من عليا دمشق قصورها      وولدان روض الثيرين وحورها  
منازل أنس ما أمحت ولا أمحت      بمر الغوادي والسواري سطورها  
سقى الله دوح الغوطتين ولا ارتوى      من الموصل الحذاء إلا قبورها  
متى أنا في ركب يوم بنا الحمى      خفاف ثقال بالأمانى ظهورها

وبما أن الشعر يُعدُّ ثمرة التداعيات النفسية التي تولّدها تقلبات الحياة الإنسانية وانتقالها من حال إلى حال عند كل الناس، فأننا نجد أن ابن عنين لسان حاله، فقد تطرق فضلاً عن الأغراض

45 - ديوان ابن عنين، ص ٦٧.

46 - وفيات الأعيان، مصدر سابق، ج ٥، ص ١٤.

47 - المرجع نفسه، ص ١٦.

الشعرية السابقة لأغرض أخرى كثيرة أهمها الحنين للوطن ولدمشق خاصة حيث بلغت قصائد هذا الباب خمس عشرة قصيدة ومقطوعة في ديوانه، يقول في إحدى قصائده في الحنين إلى دمشق: (٤٨)

حنينٌ إلى الأوطانٍ ليس يزولُ      وقلبٌ عن الأشواقٍ ليس يحول  
ألا ليت شعري هل أبیتن ليلةً      وظلُّك يا مَقرِّي (٤٩) عليّ ظليل  
وهل أريني بعدما شطت النوى      ولي في رُبى روضٍ هناك مَقليل  
دمشقُ فيَّ شوقٌ إليها مبرحٌ      وإن لـجَّ واش أو ألحَّ عذول  
ديارٌ بها الحصباءُ درّ وتربّتها      عبيرٌ وأنفاسُ الشَمالِ شَمولُ  
تسلسل فيها مأوها وهو م تطلقُ      وصح نسيمُ الروض وهو عليلُ  
فيا حبذا الروضُ الذي دونَ عزّتنا      سُحيراً إذا هبت عليه قبول (٥٠)

تطرق لألوان الدعابة التي اشتملت على التهكم والسخرية والألغاز (٥١) والغزل بالغلمان المرد (٥٢) وتقلب الظروف السياسة في عصره، ونكتفي بما أوردناه من الأغراض الشعرية وما اخترناه من نماذج تعبر عن هذه الألوان، نتحدث عن الجوانب الفنية الهامة في شعره فيما يستقبل من الحديث.

### الدراسة الفنية – اللغة..

يُعدُّ الشعر معادلاً فنياً للحياة، يحمل وسمها ولغتها و يشاكل أنماط العيش فيها، فالقصيدة العربية القديمة في مراحلها الأولى في أدب ما قبل الإسلام وما تلتها من مراحل قريبة العهد بهذا الأدب مندغمة اندغاماً تاماً شكلاً ومضموناً بحياة العربي البدوي آنذاك، وقد كتبت في مناخ من

48 - وفيات الأعيان، ص ٦٨، ٦٩.

49 - مقرّي: قرية في نواحي دمشق، شرقي الصالحية.

50 - عزّتا: قرية قرب الفيحة في نواحي دمشق يخرج نهر الفيحة من جبل تحت حصنها (حاشية ص ٦٩ من الديوان).

51 - انظر الديوان باب الدعابة والتهكم والسخرية، ص ١٢٥-١٤٨.

52 - انظر الديوان باب الوقائع والمحاضرات ص ٩٣-١١٣.

الكمال والعصمة في لغتها وموسيقاها وصورها، فكانت ديوان العربي وسجل تاريخه ومسلاً ضغائنه، مما أكسبها حالة من القداسة تغلغت في نفس العربي ووجدانه بعد ذلك، فورثها عرفاً عربياً أصيلاً، كان صعب التخطي والتجاوز من المتأخرين.

أن الشعر اصدق ما يكون وأقوى في المراحل الأولى من حياة الأمم عندما تكون الحياة بعد غفلاً طرية، وهو ما أطلق عليه شعر الفحولة، وهذا ما انطبق على الشعر العربي واليوناني أيضاً، وأحتذى من اللاحقين، وكان منتهى سعيهم وحذقهم أن يلحقوا به ويحاكوه، فهذا عنترة العبسي يعد نفسه من المتأخرين، وهو شاعر جاهلي من أصحاب المعاني العقم في إشارته في مطلع معلقته:

هل غادر الشعراء من مَرَدِّمٍ أم هل عرفت الدار بعد توهم

فكيف بشعراء القرون التالية وقد توسعت ثقافتهم العلمية والفلسفية بإطلاعهم على آداب الأمم الأخرى التي دخلت الإسلام والتي لم تدخله واحتفظت بأديانها وثقافتها السابقة، فضلاً عن تأثرهم الشديد بالقرآن الكريم في ألفاظه ومعانيه وصوره وأساليبه.

وابن عنين وليد بيئة علمية وأدبية غنية، اتكأت على مخزون عظيم من المعرفة بثتى أنواعها، والشاعر حفيد الشعراء الذين سبقوه، فأنا نجد تأثر ابن عنين بدانية بأسلوب القرآن الكريم في كثير من ألفاظه وصوره ومعانيه تأثراً واضحاً حيث يمتلأ شعره بأسماء الأنبياء ورسالاتهم: (٥٣)

وكنّا نرجي بعد عيسى محمداً ليُنقِذنا من لَعَجِ الضُرِّ والبُلُو

فأوقعنا في تيهه موسى فكلّنا حيارى ولا من لديه ولا سلوى

وقد أكثر ابن عنين الاقتباس من القرآن الكريم في اللفظ والمعنى، فقد اقتبس من سورة ياسين ما ورد عن حركة الشمس والقمر في الآية رقم (٤٠) بقوله: (٥٤)

فقلتُ حسبك لا تخشى اجتماعكما فالشمس لا ينبغي أن تدرك القمر

ولم يقتصر اقتباس ابن عنين على القرآن الكريم وإنما تعداه إلى السنة النبوية الشريفة، فهاهو يضمن معنى الحديث النبوي الشريف (٥٥):

53 - انظر الديوان باب الوقائع والمحاضرات، ص ١٣٢.

54 - المرجع نفسه، ص ٢٤٢.

55 - صحيح مسلم بشرح النووي ج ٢، ص ١٧٦.



"بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ غريباً فطوبى للغرباء"، في البيت التالي: (٥٦)

لولا دفاعك بالصوارم والقتال      عن حوزة الإسلام عاد كما بدا  
ولأصبحت خيل الفرنج مغيرة      تجتاب ما بين البقيع إلى كدى

وقد أوردت هذين المثالين من اقتباسه للتدليل على ذلك وليس على سبيل الحصر، فله أبيات ذكر فيها بعض المصطلحات الفقهية والفتاوى والنوافل (٥٧) والمذاهب حتى الأديان السماوية الأخرى كالسيحية وغيرها. (٥٨)

ونظراً لسعة اطلاع ابن عنين على الشعر العربي فقد "كان غزير المادة من الأدب مطلعاً على معظم أشعار العرب" (٥٩) "فقد أكثر من الاقتباس من الشعر القديم؛ جاهلي وإسلامي وعباسي ومحدث ومن اقتباساته من الشعر القديم نجده في هذه الأبيات: (٦٠)

وأصبح مثل الرسم أقوت رسومه      لما نسجتها من جنوب وشمال  
فقلت لقلبي بعد ذاك وناظري      قفا نبك من ذكري حبيب ومنزل

ومن اقتباساته الحرفية أيضاً: (٦١)

يقولُ الخبز لا يبعُدُ مداك ولا      أخنى عليك الذي أخنى على لبد

وهو تضمين من قول النابغة الذبياني: (٦٢)

أضحت خلاء وأضحى أهلها احتملوا      أخنى عليها الذي أخنى على لبد

56 - المصدر نفسه، ص ٦١.

57 - انظر الديوان ص ٤٧، ص ٢٠٠.

58 - انظر الديوان، ص ٨٢، ص ١٦٧، ص ١٩٤.

59 - وفيات الأعيان، مصدر سابق، ج ٥، ص ١٤.

60 - ديوان ابن عنين، مرجع سابق، ص ١١١.

61 - المرجع نفسه ص ١٤٦.

62 - انظر ديوان النابغة، تحقيق كرم البستاني، دار صادر ص ٣١.

ومن الأعشى: (٦٣)

لا عاجزا عند حمل المثلثات ولا

"يمشي الهوينى كما يمشي الوجي الوحل" (٦٤)

ومن أبي ذؤيب الهذلي: (٦٥)

و إذا الشتاء أتى ومالي فـرودة " ألفت كل تميمة لاتنفع "

إني أبيت على الطوى خاوي الحشا سغباً وأحناء الضلوع تقعقع

لم يكن ابن عنين متكسباً في شعره منذ بواكير عهده، فقد علمنا أنه بدأ نظمه هاجياً أصحاب الدولة والطبقات العليا من الحكام، فكان شعره صورة صادقة لنفسه المضطربة، منفعلاً مع همومه وأحاسيسه تجاه عصره، فجاءت ألفاظه بصورة عامة واضحة، وتركيبه سهلة، تشاكل ألفاظ عصره إلا ما قصد منه إظهار قدرته وتمكنه من ناصية اللغة أو كان محاكياً الشعر القديم فتجده يلجأ إلى الجزالة والغريب: (٦٦)

وشامت قلوصي من حمى تل راهط رياضاً حكّت وشي اليماني المقصب

لعرّة دفر حين توقد نارها لديه ومتفّال به أم جندب

وقوله: (٦٧)

من كل واضحة اللبّات تبسم عن مرثّل زانهُ التأشيرُ والشنبُ

ومهمه طامس الأعلام متّصل تواهقت بي في أجوازه النُجب

وقد يستخدم الألفاظ العامية والتي تشتمل ألفاظاً عربية وأعجمية ، ولا غرابة في ذلك، فهو ينظم لنفسه أولاً وللناس ثانياً في مواقع الهزل والسخرية والتهكم خاصة، ولا يحتشم في ذكر

63 - ديوان ابن عنين، مرجع سابق، ص ١٤١.

64 - انظر ديوان الأعشى، دار صادر، ص ١٤٤.

65 - ديوان ابن عنين، مرجع سابق، ص ١٠٦.

66 - المرجع نفسه، ص ٩٠.

67 - المرجع نفسه، ص ٤٥.

العورات في هجائه عامة الناس، وقد مر معنا سابقاً في أغراض الشعر نماذج من هجائه للخاصة والحكام حيث لا يتعرض لهم في أعراضهم.

ربما يسوقه المعنى إلى التكرار أما مضطراً لقافية أو مؤكداً لمعنى أو مشتاقاً ومتحبيباً لتكرار سماع بعض الكلمات خاصة أسماء الأماكن التي عاش بها وأخذ يحنُّ إليها في أعترابه عنها، إذ يقول: (٦٨)

ما سرُّ سُكَّانِ الحِمَى بِمُذَاعِ عَندي وَلاعْهَدْ الهَوَى بِمَضَاعِ  
أَيْنَ الحِمَى مَنَى سَقَى اللهُ الحِمَى رِيّاً وَكانَ لَهُ الحَفِيطُ الرَّاعِي

وشأن ابن عنين في استخدام المحسنات البديعية شأن شعراء عصره، فقد كثر في هذا العصر وما تلاه من عصور التخلف والانحطاط استخدام الشعراء لضروب البيان من تشبيه وكناية واستعارة تقليدية مكررة وردت كثيراً عند الشعراء السابقين، وكثيراً ما كان يشتط في تكلفه باستخدام الجنس والطباق والمقابلة والتورية والاستطراد وغيرها من الفنون البديعة التي كان لها أوفى نصيب عند شعراء تلك الحقبة، ومن تشبيهاته الطريفة قوله: يصف رسالة وصلت إليه من صديق: (٦٩)

وَصَلَتْ مِنْكَ رُقْعَةٌ أَسْأَمْتَنِي وَتَنَّتْ صَبْرِي الْجَمِيلَ كَلِيلًا  
كَنهَارِ المَصِيفِ حَرّاً وَكِرِيّاً وَلِيَالِي الشِّتَاءِ بَرْدًا وَطَوْلًا

ومن استخداماته الطريفة لأسلوب التورية قوله في مدح الملك الأشرف وإشادته بدفاعه عن الإسلام: (٧٠)

لَوْ لَمْ يَقْمِ مُوسَى بِنَصْرِ مُحَمَّدٍ لَعَلَّ عَلَى دَرَجِ الخَطِيبِ الأَسْقَفُ  
لَوْلَاهُ مَا ذَلَّ الصَّليبُ وَأَهْلُهُ فِي ثَغْرِ دِمِياط وَعَزَّ المَصْحَفُ

68 - ديوان ابن عنين، ص ٢٢.

69 - المرجع نفسه، ص ٢٣٥.

70 - المرجع نفسه، ص ١٤.

وقوله: (٧١)

وَكُنَّا نَرْجِي بَعْدَ عَيْسَى مُحَمَّدًا      لِيُنْقِذَنَا مِنَ لَاعِجِ الضَّرِّ وَالْبَلَوَى  
فَأَوْقَعْنَا فِي تَيْهِ مُوسَى فَكَأَنَّا      حَيَارَى وَلَا مِنْ لَدِيهِ وَلَا سَلَوَى

فجاءت أسماء الأنبياء الثلاثة — عليهم السلام — تورية عن عيسى الملك المعظم ومحمد الملك الكامل وموسى الملك الأشرف وهم من سلاطين الأيوبيين.

### الموسيقى الشعرية..

أن الشعر العربي غنيٌ في عروضه غنىً هائلاً، فالبحور التي اعترف بها كأسس هي ستة عشر بحراً، ويمكن أن يتكون من التفاعيل الثمانية الرئيسة أكثر من ثلاثمائة من البحور، وأنَّ الشاعر العربي يختار من هذه الأوزان ما يناسب حالته النفسية ويحقق تجربته الشعرية منسجماً مع ذوق عصره.

فالفنُّ بكل أنواعه يسير مواكباً الحياة وتطورها، فيغيّر من أنماطه وأساليبه وأدواته ليبقى صورة جميلة للحياة، متفاعلاً معها ومتسقاً مع طبيعتها الجديدة، يقول ت. س. أليوت: "أن جميع الأشكال أكثر مناسبة في عصرها من أي عصور أخرى، فالشكل الذي يتبع نظاماً معيناً في الإيقاع والتقفية يناسب مرحلة معينة ويكون فيها تشكيلاً مشروحاً للغة الكلام في نمط شعري". (٧٢) فابن عنين لم يخرج عن هذا الرأي، فجاءت موسيقاه الشعرية مشاكلة نبضات حياته ومستوعبة تموجات نفسه وتقلباتها ومتساوقة مع حركات عصره، فلم يخصص بحوراً معينة لأغراض معينة في شعره، وإنما كانت أوزانه الشعرية صدى لموسيقى نفسه الداخلية، ومتجاوبة مع الأجواء العامة التي كان يعيشها آنذاك.

ولأن ابن عنين قد عرف إمكانيات البحور الشعرية وما يمكن أن يؤديه كل وزن من إحياءات تحقق تجربته، فلقد استغل إمكانيات البحور الطويلة كالكمال والطويل والبسيط والخفيف، وإذا ما قمنا بإحصاء عدد الأبيات للقصائد والمقطوعات التي نظمت على البحور الأربعة السابقة لوجدنا حوالي (١٧١١) بيتاً من مجموع أبياته في نسخة هذا الديوان البالغة (٢١٢٦) بيتاً.

71 - ديوان ابن عنين، ص ١٣٢.

72 - نقلاً عن قضية الشعر الجديد، د. محمد النويهي، الخانجي، دار الفكر، القاهرة ن ط ٧١، ص ٨٨.

يلي البحور الأربعة السالفة الذكر بحرا المنسرح والوافر وقد نظم على المنسرح (١١) مقطوعة وقصيدتين، وعلى الوافر (٢٢) مقطوعة وقصيدة واحدة.

أما البحور المتبقية فلم ينظم عليها سوى المقطوعات التي تمثل حياة العبث واللهو والدعابة والألغاز، ولم ينظم عليها أية قصيدة في الأغراض الأخرى، وقد اختار البحور الأربعة لقصائد المدح والثناء خاصة.

فقد كان اختياره موفقا للبحر الكامل في قصيدته الرومية في مدح طغتكين و مطلعها: (٧٣)

لا تَعْرِضَنَّ لِضَيْقِ الْمُقَلِّ      فَتَبَيَّتَ مِنْ أَمْنٍ عَلَى وَجَلٍ  
وَأَتْرَكَ ظَبَاءَ التَّرِكِ سَانِحَةً      لا تَعْتَرِضُ لِحَبَائِلِ الْأَجَلِ  
خَطَرْتُ بِمَثَلِ الرَّمَحِ مَعْتَدِلٍ      وَرَنْتُ بِمَثَلِ الصَّارِمِ الصَّغِلِ

فقد جاءت موسيقاه مرحلة خفيفة تصور إحساسه آنذاك بالفرح والمرح والحبور، والبحر الكامل مهيباً لأن يحمل تجربة الشاعر بهذه القصيدة لما فيه من نبرة شجيرة مطربة. (٧٤)

ويختار ابن عنين البحر الطويل لقصيدته ( في الحنين إلى دمشق ) (٧٥) ومطلعها:

حَنِينٌ إِلَى الْأَوْطَانِ لَيْسَ يَزُولُ      وَقَلْبٌ عَنِ الْأَشْوَاقِ لَيْسَ يَحُولُ  
أَبَيْتُ وَأَسْرَابُ النُّجُومِ كَأَنَّهَا      قَفُولٌ تَهَادَى إِثْرَهُنَّ قَفُولُ  
أُرَاقِبُهَا فِي اللَّيْلِ مِنْ كُلِّ مَطْلَعٍ      كَأَنِّي بِرَعْيِ السَّائِرَاتِ كَفِيلُ  
فِيَا لَكَ مِنْ لَيْلٍ نَأَى عَنْهُ صَحْبُهُ      فَلَيْسَ لَهُ فَجْرٌ إِلَيْهِ يَوْوُلُ

فكان الطويل متجاوباً مع حزن الشاعر ومطواعاً لينهض بالمونولوج الداخلي ونجوى الشاعر مع نفسه.

والقافية على رأي الجاحظ خواتيم أبيات الشعر (٧٦)، وقد حددها الخليل بأنها تبدأ من آخر حرف في البيت إلى أول ساكن يسبقه مع حركة الحرف الذي قبل الساكن، وهي بمثابة الفواصل

73 - الديوان ص ٤٠.

74 - شرح تحفة الخليل في العروض والقافية، عبد الحميد الراضي، مطبعة العاني، بغداد ١٩٦٨، ص ١٧٧.

75 - الديوان، ص ٦٨.

76 - البيان والتبيين، ت، عبد السلام هارون، ج ١ ص ١٧٩.

الموسيقية، يتوقع السامع تردها ويستمتع بمثل هذا التردد الذي يطرق الأذن في فترات زمنية منتظمة وبعد عدد معين من مقاطع ذات نظام خاص يسمى الوزن". (٧٧)

ولقد اعتمدت القافية في الشعر العربي على حصيلة الشاعر اللغوية وثرأ ذاكرته وثقافته في المواضيع التي يطرقها، وابن عنين يُعدُّ من الشعراء المتقنين ثقافة عالية، وقد مرَّ بنا سابقاً فيما مضى من حديث عن تنوع ثقافة ابن عنين، فهو ابن بيئة مزدهرة بالعلوم وعصره عصر التأليف الموسوعي وتتلذذ على أيدي أساتذة كبار، فظهرت في شعره أنواع من العلوم، الدينية والفلكية واللغوية النحوية وغيرها، لذلك جاءت قوافيه غنية بموسيقاها موائمة للوزن الشعري ومستغلا إمكانات الأصوات التي تناسب حالته النفسية من حزن وفرح.

فقد أكثر من استغلال إمكانات أصوات الراء والباء واللام والذال والميم والنون، وقد كان لصوت الراء أوفى نصيب في ديوانه، وقد استخدم كل الحروف ما عدا الظاء والهاء وأقل الحروف استخدمها في قوافيه حرف الخاء فقد نظم عليها قصيدة واحدة.

وقد جاءت له قوافٍ ساكنة حرف الروي وهي ما يطلق عليه القافية المقيدة، وما تحرك حرف رويها فهي المطلقة، فقد كان اختياره للقافية تبعاً لتداعياته النفسية وما يريد من ارتكاز ووقفة على السكون من إظهار المعنى المراد وتأكيد: (٧٨)

يا خليطاً بالدبس أقصر عن الشـ      رٌ فقد قيل رابحُ الشرِّ خاسرٌ

فانظر معي - رعاك الله - ماذا أعطت هذه القافية المقيدة بانقطاع النفس في اظهار كلمة خاسر والتأكيد عليها، ومن استخدامه للقافية المطلقة قصيدته النونية متغزلاً بعلامين هما فاتك ونصر. (٧٩)

وساحر الطرفِ شهىّ اللمى      حلو التثنى كامل الحُسنِ

يمشي وتربُّ معه مثله      في الشكل والهيئة والسنِ

فقد جاءت قافيته ملائمة للموقف النفسي الذي يعيشه الشاعر متغزلاً بساحر الطرف شهى اللمى، والنفس عندما تكون مرحلة تطيل فترة خروج الصوت من مخارجه وتمدُّه ليبقى أثر هذا

77 - موسيقى الشعر، د. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلومصرية، القاهرة، ١٩٨١، ص ٣٤٦.

78 - ديوان ابن عنين، ص ٢٠٠.

79 - ديوان ابن عنين ص ١٦١.

الصوت أطول مسافة زمنية ممكنة لأنه لا يريد مفارقتها، فكان استخدام قوافيه غاية في التوفيق. وعلى الرغم من المحاولات التي ظهرت في عصر ابن عنين وسبقته للتغلب من قيود الوزن بالبحث عن الجديد في الموسيقى، إلا أننا لم نجد أن ثمة محاولات لأبن عنين للخروج والتغلب من رتبة الموسيقى العربية المتمثلة ببحورها الشعرية الستة عشر، فقد حاكت موسيقى أوزانه دخائل نفس ابن عنين وأرضتها واحتضنت أحاسيسه واستوعبتها، فركن للموسيقى العربية واكتفى بها، ثم إن طموح ابن عنين إلى المراكز العليا ولعب أدوارا في السياسة قد صرفه كثيرا عن الاهتمام بشعره، فهو سياسي أولا ثم شاعر، وشعره صورة نفسه ومرآتها، لم يصنعه للكتب وإنما كان رجع أفكاره وأحاسيسه الداخلية وما يشعر به تجاه أحداث عصره ومجتمعه وناسه.

### المراجع والمصادر..

١. البيان والتبيين، عمرو بن بحر الجاحظ، ت: عبدالسلام هارون، ط ١ سنة ١٩٤٨.
٢. الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية، د. احمد أحمد بدوي، مطبعة نهضة مصر ( بدون تاريخ )
٣. النجوم الزاهرة في حلي القاهرة، عبد الله الحجازي، ت: حسين نصار طبعة دار الكتب المصرية ١٩٧٠.
٤. الكامل في التاريخ لابن الأثير طبعة دار صادر، بيروت، ١٩٦٦.
٥. تاريخ مصر لابن إياس، المطبعة الكبيرة الأميرية، بولاق مصر، طبعة ١٣١١هـ.
٦. شرح تحفة الخليل في العروض والقافية، عبد الرحمن الراضي، مطبعة العاني بغداد، ١٩٦٨.
٧. قضية الشعر الجديد، د. محمد النويهي، مطبعة الخانجي، دار الفكر، القاهرة، ط ١٩٧١.
٨. كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكتاب، ابن الأثير، ت. د. نوري القيسي وآخرون، جامعة الموصل.
٩. معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ط دار المأمون، ١٩٣٨.
١٠. موسيقى الشعر، د. إبراهيم انيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨١.
١١. وفيات الأعيان لابن خلكان، ت. د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت
١٢. ديوان ابن عنين، ت خليل مردم، دار صادر، ط ٢، بدون تاريخ.